حديث بين دلسبس ومحمد سعيد

للدكتور مصطفى الحفناوى

فى تاريخ العالم مصادفات ملفتة للنظر ، ومن أعجب هذه المصادفات ان يقترن اسم الجزائر بقناة السويس ، وتلتقى المعركة هنا وهناك ، ويكون المسئول الأول عن كارثة الجزائر هو الرجل الذى أراد أن يجعل من قناة السويس اداة استعمار الغرب للشرق ، وينقضى بعد المأساة قرن واحد من الزمان ، تتحرر بعده قناة السويس من آثام ذلك المستعمر ، وتستعد الجزائر لاستقبال حريتها ٠

فى سنة ١٨٣٠ غزت فرنسا الجزائر ، وكان من بين رجال الحملة ، شاب مغامر يقال له فرديناند دلسبس ، رأت حكومة بلاده أن تستعين به فى التجهيز لاغتيال ضحية أخرى أشد خطرا من الجزائر ، وعينته فى سنة ١٨٣٢ فى وظيفة نائب قنصل ببلاط محمد على ، ومنذ أول وهلة لقى الحظوة لدى محمد على ، لان هذا الاخير كان يدين بعرشه لماتيو دلسبس، قنصل فرنسا الذى كان قد عينه نابليون بونابرت أثر جلاء الفرنسيين عن مصر ، ليمهد لغزو فرنسى جديد يستهدف حفر قناة فى برزخ السويس ٠

ووقع نظر فرديناند فى بيت محمد على ، على غلام مترهل البدن كان فى الثانية عشرة من حياته ، وكانت امارات الغفلة والغباء بادية عليه ٠

وعهد محمد لفرديناند دلسبس بالغلام ليدربه على الرياضة ويعلمه الفروسية ٠

واعتقد دلسبس ان فتاه سوف يجلس على أريكة مصر يوما من الايام ، فأعده للدور الخطير الذى غير مجرى التاريخ ، وأتاح للغرب سيطرته على الشرق ٠

ويحدثنا دلسبس نفسه ، فى مذكراته ورسائله الخاصة ، عن أسلوب التربية ، واعداد الملوك لاحتمال أضخم التبعات ، يقول فى تلك الرسائل والمذكرات ، انه أشبع غرائز محمد سعيد ، وألهبها ، وأقام له الحفلات الساهرة الصاخبة فى قنصلية فرنسا،وقدم اليه الشقراوات الفاتنات من بنات الجالية الفرنسية ، اللائى كن يلتقين فى تلك الدار للرقص والمجون ، واستطاع بهذه الكيفية ان يتسلط على الامير المصرى تسلط المنوم على الوسيط ٠

وتقلب فرديناند فى عدة وظائف فى خدمة السلك السياسى الفرنسى الى ان فصل من تلك الخدمة فى سنة ١٨٤٠ بسبب تصرفات نسبت اليه فى مدينة روما ٠

وفى صيف ١٨٥٤ ، وبعد مصرع عباس الاول ، كان دلسبس يقضى وقتا فى ريف فرنسا ، فوقع نظره على نبأ تعيين تلميذه ومريده محمد سعيد واليا على مصر ، فبادر بالسفر الى باريس ليلتقى هناك بالامبراطورة أوجينى قريبته التى كانت مخطوبة له قبل زواجها بالامبراطور نابليون الثالث، كى يقول لها ان الفرصة التى ترقبتها أوروبا وعملت من أجلها مدى بضعة قرون ، قد سنحت له ، فبوسعه ان يظفر من محمد سعيد بامتياز حفر قناة فى برزخ السويس ، تمكن لفرنسا من

السيطرة على طريق الشرق ، ويجب أن يكون الامبراطور على أتم أهبة لمعاونته وتأييده فى هذا الأمر الخطير ٠

وكتب لصاحبه ينبهه بأنه فى طريقه الى مصر كى يقدم له التهنئة بمنصب الولاية والسلطان ، فاستقبله محمد سعيد كما يستقبل الملوك فى مدينة الاسكندرية فى ٧ نوفمبر سنة ١٨٥٤ ، ومنذ اليوم الاول راح دلسبس يستجوب رجال حاشية محمد سعيد ، ليقف منهم على أخلاقه ومزاجه ، بعد أن آلت اليه شئون الحكم ، فقيل له ان الوالى يحب الفروسية ويستهويه المدح والثناء ٠

واستضاف محمد سعيد صاحبه لمشاهدة مناورات الخريف فى الصحراء الغربية فى صبيحة يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٨٥٤ وعندئذ امتطى الثعلب الفرنسى صهوة جواد ليقفز فوق هضاب من الرمال ، ويقوم بألعاب بهلوانية ، وهنا نترك الكلام لفرديناند دلسبس نفسه ، وقد وصف لحماته الفاتنة مدام دى لامال فى خطاب له الطريقة التى ظفر بها بفرمان امتياز حفر قناة السويس ، قال فى ذلك الكتاب :

« كنت أمتطى صهوة الفرس ، لاصل الى مخيم الوالى متخطيا الحاجز الذى تكلمت عنه ، والوالى باسم منشرح الصدر فيأخذنى من يدى ، ويظل ممسكا بها بعض الوقت ويجلسنى على أريكته الى جواره ٠ وكنا فرادى ، وفى المخيم نافذة صغيرة سمحت لى برؤية الشمس فشعرت بالطمأنينة والهدوء فى لحظة أردت أن أتحدث فيها عن مشروع حاسم فى مستقبل حياتى ، وتتمثل فى ذهنى خواطرى عن القناة التى تصل بين البحرين ، وقد استطعت ان أنقل ما فى قلبى الى قلب الامير

فعرضت عليه مشروعى وتلوت مذكرتى وهو مصغ الى بانتباه زائد ، وقال لى فى الختام انى مقتنع وانى قبلت مشروعك وسنشتغل بأمره فيما تبقى من الرحلة ونبحث وسائل التنفيذ، أنه مشروع مفهوم وفى وسعك ان تعتمد على » .

وبين أيدينا تلك المذكرة الرنانة التى قرأها دى ليسبس على صاحبه ليظفر منه بالموافقة والقبول، لم يقل فيها انه يريد حفر قناة تكون ملكا للغرب أوأداة سيطرة له على الشرق ، بل قال عكس ذلك ، وتحدث عن قناة تجلب الخير والسعادة للشعب المصرى ، وتيسر للمسلمين رحلاتهم الى مكة والمدينة لاداء فريضة الحج ، وقال ان هذه القناة من شأنها ألا تسمح لدولة من الدول بأن تكون صاحبة نفوذ أو شبه نفوذ فى مصر ، بل تضمن لمصر السيادة والحياد ، وأكد لسعيد أن هذا المشروع سيرفع اسمه فوق أسماء الملوك الذين شيدوا الاهرام .

وفى ٣٠ من نوفمبر سنة ١٨٥٤ وبعد ان وصل الركب الى القاهرة اجتمع القناصل فى القلعة ، وقرأ عليهم سعيد صيغة الفرمان الاول ، مؤكدا فى ديباجته ان المشروع مصرى ، وأنه ينفذ لحساب مصر وبمعرفة شركة تكون مفوضة من الحكومة المصرية ، وتستمد وجودها وكيانها من سلطان الدولة المصرية .

وكان البدء فى التنفيذ معلقا على موافقة السلطان العثمانى، ويومئذ قامت فى لندن ضد المشروع ثورة صاخبة تزعمها رئيس حكومة انجلترا وقتئذ لورد بالمرستون ، وأعلن هذا اللورد ان المشروع خطر يهدد مصر ومستقبلها السياسى والعمرانى ، وقالت صحافة انجلترا ان دى ليسبس أفاق ظهر فى القرن التاسع عشر ليضل الناس ويثير القلق والاضطراب، واستعملت انجلترا كل ما تملك من وسائل الضغط والنفوذ

فى الاستانة لمنع الموافقة على المشروع ، ولكن دى ليسبس الذى آزره امبراطور فرنسا ، وملوك أوروبا وساستها الكبار ومن فوقهم البابا بيوس التاسع عشر ، ظفر من صاحبه بالمال والهبات التى حصل عليها بغير حساب ، وأقلها تفتيش الوادى الذى تبلغ مساحته خمسة عشر ألف فدان ٠

وتحت تأثير الانذارات المتعاقبة التى كانت تصل من القسطنطينية مهددة محمد سعيد بالعزل وبالويل والثبور تحلل جسده الضخم ، ولم تكن أعمال الحفر قد بدأت ، حتى صبيحة يوم الاثنين ٢٤ من ابريل سنة ١٨٥٩ ، فيومئذ توجه دى ليسبس الى خليج الفرما حيث تقع الآن مدينة بور سعيد وهو يحمل معوله ، وضرب الضربة الاولى فى قلب مصر ، باسم شركة قناة السويس ايذانا بابتداء أعمال الحفر ٠

واضطرب محمد سعيد أيما اضطراب ، واحتج على صاحبه أشد الاحتجاج ، ولم يستطع ان يفعل شيئا أكثر من اصدار الاوامر المشددة لرجاله فى الاقاليم بمنع الفلاحين الذين يجمعهم دى ليسبس من الاشتراك فى أعمال الحفر ، ولكن فرديناند لم يحفل بأرادة الوالى ، وحشد جموعا كان يتصيدها من جزر البحر الابيض المتوسط ، حشد جموع العاطلين والمشردين للحفر ، فى غير تورع أو مبالاة ٠

وكان يكفى ان يلتقى دى ليسبس بصاحبه فينقلب سعيد من النقيض الى النقيض ، وان تركه لنفسه عاودته المخاوف وأصدر من جديد تعليماته بمنع المصريين من التوجه الى منطقة الحفر ٠

واستطاع دى ليسبس بسيطرته على صاحبه ان يدق

أسفينا آخر فى هذه البلاد ، فقد أغراه بصور من المدنية الغربية ، بصور من الترف واللهو والفتون وليال حمراء تقام فى القصور ، وأغراه بالديون الاجنبية ، ففتح باب مصر على مصراعيه لحملات المرابين التى كانت طلائع الاحتلال الاجنبى ، ودى ليسبس هو الذى توسط فى أول قرض عقدته مصر ، وكان يقبض السمسرة من هنا وهناك ، ومات سعيد عن ديون أجنبية تجاوزت أحد عشر مليونا من الجنيهات ٠

وكان لدى ليسبس فى قصر محمد سعيد عيون ساهرة تشبع شهوات الوالى وغرائزه ، وترتب له الحفلات والسهرات، ويذكر التاريخ من هؤلاء رجلا يقال له « بولينى » وما أعجب تشابه الاسماء وتكرار الرواية جيلا بعد جيل !

الا ان محمد شريف ناظر الخارجية ، كان يمقت دى ليسبس مقتا كبيرا ، وقد أتيح له ان يحول بينه وبين مقابلة الوالى سنة كاملة ، استطاع فيها سعيد ان يثبت على رأيه حتى كتب للقسطنطينية يقول :

« لست أتحرق شوقا لهذه القناة ولكن ما الحيلة ، فقد عقدت مقاولة يتوقف تنفيذها الفعلى على الارادة السنية اعتقادا بأن الامر لا يصل الى هذه الدرجة من التعقيد ٠ وكنت قد اعترفت لكم بأنى قد تعجلت فى ابرام هذه العملية وقد زاد الطين بلة تأسيس دى ليسبس شركة عقب عقد المقاولة ٠ انى معترف بأنى تعجلت فى هذا الأمر منذ البداية فأنا بشر يخطىء ومن العسير على ان أخرج نفسى بمفردى من هذا المأزق »

وكان دى ليسبس يعرف جيدا ، ان نفوذ أوربا بأسرها لا يجديه نفعا لان العملية تتوقف وجودا وعدما على مشيئة

مصر ، باعتبار القناة مسألة داخلية ، كأية مقاولة لمشروع من المشروعات، فعدول الوالى عن المشروع اعدام له من غير شك .

وحينئذ لم يتردد المغامر الفرنسى فى التضحية بصاحبه ، متنكرا للمنافع الضخمة التى حصل عليها ، وقد أتيح له ان يلقاه فى يوم من الايام ويقنعه بأيفاد ولده طوسون الى باريس كى يتلقى العلم فى كنف ورعاية الامبراطور نابليون الثالث، وفرح سعيد بهذه المكرمة وسلم ولده لصاحبه ، حتى وصل الى باريس، ثم عاد دى ليسبس لمقابلة الوالى ليقول له ان ابنك رهينة لدينا ، واذا أنت عارضت المشروع أو أصدرت أوامرك بمنع الفلاحين من حفر القناة ، فانك تعرف يومئذ أنك تدفع فلذة كبدك ثمنا لهذه المعارضة ، ولم تمض على هذا التهديد أيام حتى ركن سعيد الى فراشه مهدود القوى ، مبلبل الذهن ومات بضربة من صاحبه . ولما نعوه الى دى ليسبس ركب هذا الاخير جواده حتى وصل الى الاسكندرية ، ووقف على باب المسجد يتقبل العزاء فى الرجل الذى أزهق روحه وأقض مضجعه .

تلكم لمحة خاطفة عن صفحة من صفحات العلاقة بين محمد سعيد وفرديناند دى ليسبس ، بل صفحةمن صفحات القناة ومأساتها الدامية ، وما أكثر الصفحات التى من هذا القبيل فى سجل قناة السويس ، صفحات السخرة والسياط التى كانت تهوى على ظهور الابرياء ممن حشدوهم للموت جماعات وأفرادا ، فى تلك الشقة الممتدة بين مدينتى السويس وبور سعيد ، والقناة التى قالوا أنها ستكون خيرا وبركة لمصر ولبنى الانسان ، كانت أداة سطو وعدوان على الهند والصين وغيرهما من مختلف بلاد القارة الاسيوية ، ومكنت لانجلترا ا بوجه خاص من القاء قبضتها على مستعمراتها الواسعة فى كل

من آسيا وأفريقيا . وليس هناك أدل على تلك الجرائم التى ارتكبت ، تحت ستار ما سموه شركة قناة السويس، من أرقام حركة المرور فى القناة ، تلك الارقام التى تبين ان بريطانيا ظفرت لنفسها بأكبر نصيب ، وهى تحاول الابقاء على كيانها ، جاعلة من الجماعة الدولية مخالب القطط ، ولكنها نسيت ان القرن التاسع عشر وصفحاته السوداء فى خبر كان ، وان الضمير العالمى لا يرضى عن هذه الفوضى التى تهدد سلامة العالم وحريته دائما وباستمرار ، وان مصر حينما طوت تلك الصحائف السوداء فى مساء اليوم السادس والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩٥٦ انما فعلت ذلك بأمر من الله وبتوفيق منه لزعيمها وقائد نهضتها ، كى تجرى الملاحة فى القناة حرة من كل قيد فى الحرب والسلم على السواء ، ولسفن العالم كله بغير تمييز ولا استثناء • ومصر صاحبة القناة ومالكتها ، مصر التى خلقها الله فى ملتقى القارات هى التى تكفل بمفردها ودون تدخل أجنبى فى أى لون كان ، تلك الحركة الدائمة المستمرة ، فيستقر السلام فوق أرض الله وتنعم الشعوب ، على قدم المساواة فى السيادة وفى الحقوق ، بالخير والسعادة ، وتتعاون على التقوى ، لا على الاثم والعدوان •

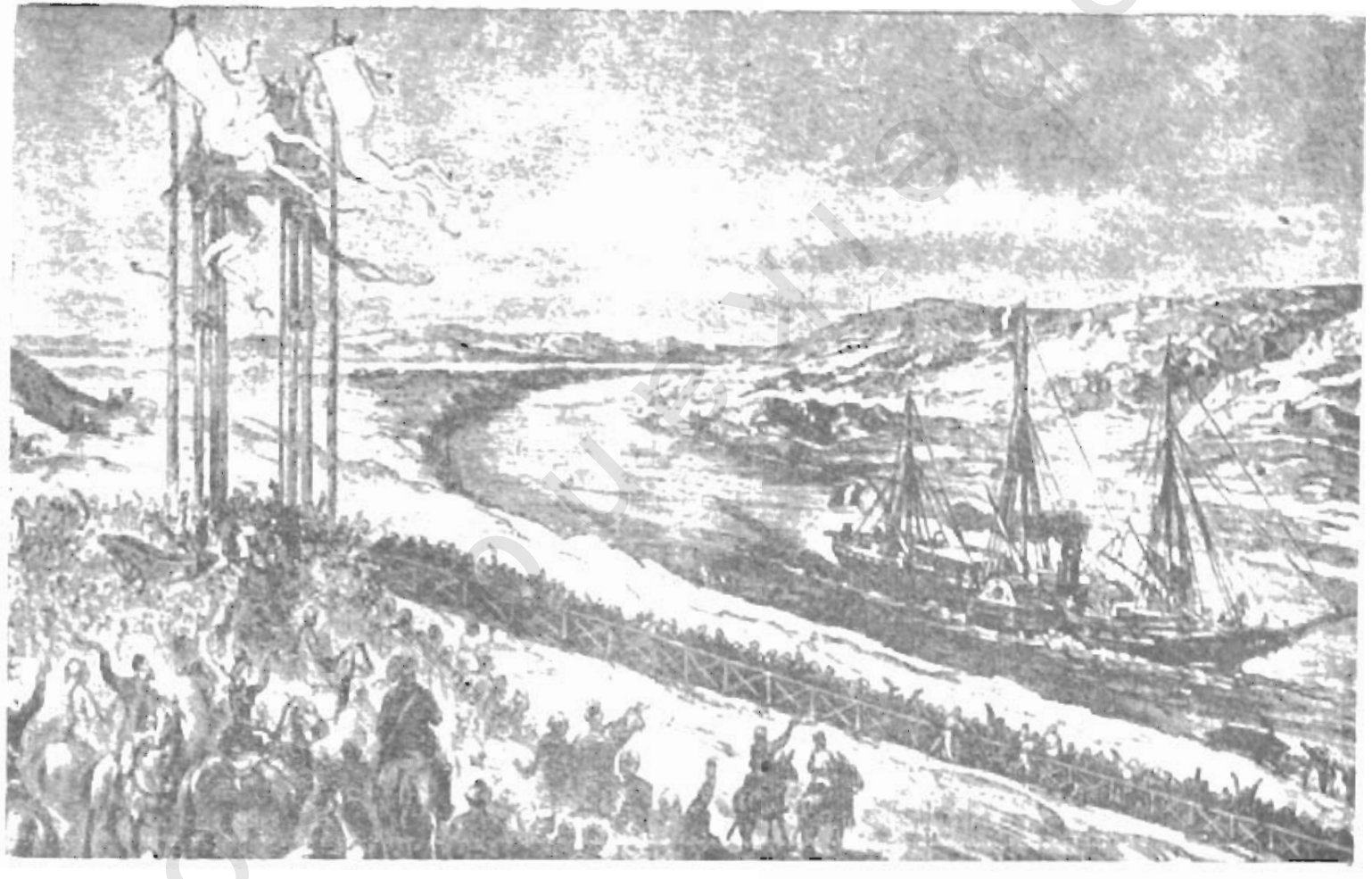

استقبال أوجينى زوجة نابليـون الثالث ، الذى قضى على مصر بالتعويض من أجل الغاء السخرة الى مكان الاحتفال عبر القناة ، بين مجامع الرفيق وفلول السبايا ، فى ذلك المشهد الاغبر المرير ،

obeikandl.com

من صور يوم افتتاح القناه على عهد اسماعيل

سفه وغفلة وعار ... انظر فهل تجد وجها مصريا واحدا

obeikandl.com

وصول الفاتحين الى الاسكندرية فى ١٥ اكتوبر ١٨٦٩ بدعوة من
اسماعيل لافتتاح القناة
العربات المظهمة تحمل السادة الامناء
اما الشعب فيزاح عن طريقهم بالخيل والسياط

obeikandl.com

أوجيني تنزه على شاطىء القناة

حيث رقدت جثث عشرات الالوف ممن حفروها